فى مصر أزمة سيدات

بقلم الأستاذ "س . "

نعم فى مصر أزمة سيدات على كثرة من فيها من النساء ، فليست كل امرأة سيدة . ومن هنا كانت الأزمة التى تعانيها مصر فى سيداتها ، وهى أزمة يتوقف على حلها كثير من الإصلاح الاجتماعى والخلق والعقلى فى هذه البلاد .

فكلمة "سيدة" فى ذاتها تدل على امرأة "تسود" شيئا وترعاه . فلا بد من شيء ينال رعايتها وحمايتها حتى تصير جديرة بهذا اللقب العظيم ... شيء ما : البيت ، الأولاد ، المجتمع الأسر الفقيرة ، الأطفال المشردين ، النسوة الخاطئات ... شيء ما من هذه الأشياء التى تجبى فيها فضائل المرأة ، وتتبدى رحمتها وحنانها .

وفى الأمم الراقية تشعر المرأة بهذا المعنى شعورا عميقا ، وتحس أن الرعاية جزء من شخصيتها لا تكمل إلا به ، فهى صبية ترعى إخوتها وأخواتها الأطفال ؛ وهى شابة ترعى هؤلاء وتشترك فى الخدمات الاجتماعية التى تنهض بها الجماعات ؛ وهى سيدة ترعى بيتها وأطفالها وزوجها وتنفق مابيق من وقتها — إن تبق منه شيء — فى رعاية الطوائف المحرومة والطبقات البائسة ... فإن لم يكن شيء من ذلك كله فلا بد أن تسبغ رعايتها على شخصية أو شخصيات أخرى ... على عالم تعاضده أو فنان ترعاه أو مشروع تنفخ فيه روح الحياة .

والمرأة هناك تقوم بهذه الرعاية بلا كلفة ولا انتباه . تقوم بها بجزء من وظيفتها الطبيعية بلا حاجة إلى الإعلان ، وبلا دعوة من أحد ، كما تحمل الأطفال وتضعهم وترضعهم وتسهر عليهم سواء بسواء .

أما فى مصر فالسيدة — بهذا المعنى — معدومة أو نادرة ؛ وقد سئل أحد كبار أدبائنا أن يسمى خمسا من العظيمات فى مصر فذكر أربعا وعجزت ذاكرته أن يجد فيها الخامسة ! ؛ والنتيجة تكاد تكون قريبة من هذا لو سئل عن عدد "السيدات" !

عنصر الرعاية الذى هو العنصر الرئيسى فى نفس "السيدة" هو الذى تفتقده مصر فى نسائها فلا تعثر عليه إلا فى النادرات القليلات . ومن هنا لا تزدهر "الخدمة الاجتماعية" فى مصر ، لأن المرأة لا تنهض بهذا الواجب بشخصها ، ولا تبذر بذوره بالقدوة فى نفوس أبنائها وبناتها ... ويا طول شقاء مصر إن دامت الحال على هذا المنوال ...

ولا أحاول أن أنكر أن المرأة المصرية ساهمت فى النهضة الوطنية ، كما بدأت تساهم فى الخدمة الاجتماعية، ولكن من الحق أن نقول : إن مساهمتها هنا وهناك كانت على سبيل التقليد ، كانت نوعا من "المودة" غايتها الشهرة ونشر الأسماء والصور فى الصحف ، كانت إعلانا لا أقل ولا أكثر ، ولم تصر بعد تلبية للوظيفة الطبيعية ، وتكملة لعناصر الشخصية التى تستحق اسم " سيدة " والتى تؤدى فى صمت وهدوء كما تؤدى الوظائف الطبيعية فى الحياة .

ولسوء الحظ أن تعليم فتيات الجيل جميعا لا يمكن أن يتم دفعة واحدة... ومن هنا شعرت المتعلمات أنهن جنس جديد غير جنس المرأة التى يرينها فى الريف وفى الحريم . جنس غير مطالب بوظائف المرأة و إنما عليه أن ينهض بأعباء الرجال مادام يشبه جنس الرجال فى التعليم ولا يشبه جنس النساء ، فلما أقبلن على المساهمة فى الحركة الوطنية وفى الخدمة الاجتماعية أقبلن مندفعات بتقليد الرجال ولأداء وظائف الرجال ... وتلك هى الغلطة التى عوقت خطوات النهضة النسوية ، أى نهضة السيدات .

و بعض المشتغلات بالمسائل العامة يأنفن من رعاية البيت ، لاعتقادهن أن الاشتغال بالشؤون العامة لا يتفق مع هذه الرعاية، وأن العمل العام أهم وأعظم شأنا من العمل للأسرة فى داخل العش ... وتلك هى غلطة العقلية النسوية فى هذه الفترة ، وغلطة التعليم البائس الذى تناله المرأة فى هذه الأيام ... التعليم المشترك مع الرجال .

وفى أوربا وأميركا كثير من " السيدات " الوالدات يسبغن رعايتهن الكاملة على بيوتهن وأزواجهن وأطفالهن ، ويجعلن العش المقدس قطعة من الفردوس الناعم ، ثم يجدن بعد ذلك من وقتهن وعطفهن ما يرعين به الشؤون العامة بلا تعارض ولا اصطدام .

لماذا ؟ لأن السيدة هناك تفهم أولا أنها امرأة ، وأنها بهذه الصفة تؤدى وظيفة خاصة للمجتمع — تؤديها على طريقتها الخاصة لا على طريقة الرجل ، فتفلح فيها لأنها تؤديها بالطريقة الطبيعية ، ولا تنسى أن هذه الوظيفة هى الرعاية لا المنافسة ... هى رعاية الرجل والطفل والمجتمع بالعطف والبر والحنان .

وسينقضى وقت طويل قبل أن تستقر الفورة الثائرة فى تلك الرءوس الصغيرة الجميلة . وقبل أن تعود الشاردات عن جنسهن إليه ، وقبل أن تهتدى العقلية التعليمية فى هذا البلد إلى أن للمرأة ثقافة خاصة يجب أن تتعمقها الطفلة والصبية والفتاة ، وقبل أن تفهم المرأة المتعلمة أنها تؤدى للوطن حين تنشىء له جيلا صالحا خدمة أكبر وأجل مما تؤديه حين تخطب فى المؤتمرات وتشتغل بالمحاماة وتقوم بأعمال الرجال فى وقت يتعطل فيه الشبان عن العمل لضيق المجال .

نعم سينقضي وقت طويل قبل أن تدرك المرأة فى مصر مغزى قول النبى العظيم: "مهنة إحداكن فى بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله" فتدرك أن رعاية المنزل تخلق منها "سيدة" لايخلقها "الروب" وأنها تستطيع مع هذا أن ترعى المجتمع كله أو بعضه فى أوقات الفراغ .

فإذا جدّ الجدّ ووقعت الواقعة واحتاجت مصر إلى بناتها ونسائها بعد أن تستنفد شبانها ورجالها فى الأعمال العامة ، فهنا يصبح واجبا على المرأة أن تتخلى عن وظيفتها الأولى ، وأن تلبى هذه الحاجة الاستثنائية كما تصنع الشعوب المحاربة فى هذه الأيام .

ولا يفهم أحد من هذا أن كل امرأة تقبع فى دارها، وتنسل للبلد أطفالا هى فى عرفى "سيدة" فقد تسمى "أنثى" وقد تسمى "امرأة" ولكنها لاتكون "سيدة" إلا أن تتقن عملها ، لاتكون "سيدة" إلا أن تكون "راعية" وإلا أن تمتع هذا العش بالدفء والصيانة .

والسيدة التى ترعى البيت هى التى تستطيع أن ترعى الوطن ، ولن تفشل امرأة فى مملكتها الصغيرة ثم تنجح بعد ذلك فى المملكة الكبيرة ، ذلك أنها لا تنجح هنا إلا بأداء وظيفتها هناك والعواطف التى تتفجر فى نفسها فتدفعها إلى الخدمة العامة إنما تجمع وتنبع من استعدادها للخدمة الخاصة ، بل هى لاتصنع حين تخرج من الدار إلا أن توسع دائرة رعايتها الأنثوية ، فاذا حادت عن هذا واتجهت سبيل الرجال فقد عملها قيمته، وفقدت هى نفسها، وافتقدها الوطن كثير لهمة الرجال .

وقد قرأت فى البلاغ هذه الفقرات عن المرأة الروسية فى الحرب الحالية لمندوبها الجوّال هناك الأستاذ "عبد المنعم حسن" فيحسن أن أضع أمام المرأة المصرية هذه الفقرات :

"إن أقصى دروس التضحية والوطنية تجلى الآن فى أقاليم روسيا، فبعد أن يجهد الفتيات والنساء أعصابهن فى العمل لتموين الجنود المحاربين ، يصرن دماءهن و يرسلنها لتقوية الجرحى . وبذلك تساهم روسيا : نساؤها ورجالها بكل دمائها .

"و بقدر مايثير هذا المنظر من الألم، بقدر مايهز النفوس إعجابا ببسالة النساء وإيمانهن بالفكرة الوطنية، ففى أحد المستشفيات تجمعت الفتيات والنسوة ، وقد مدت كل منهن ذراعها فيشد إلى مسند صلب بلفافات من المطاط و يغرس الطبيب إبرته فى صلب الشرايين ، فيسيل الدم فى أنابيب من الكاوتشوك ثم يمر منها إلى أنابيب أخرى خاصة بهذه العملية ويجرى الدم بسرعة تصل أحيانا الى ٢٥٠ جراما فى ثلاث دقائق . و يرسل هذا الدم إلى لمستشفيات العسكرية فى أنابيب بعضها يحوى ٥٠٠ جراما .

"وقد نظمت هذه العملية فى كل المدن لروسية و يبدأ بقيد أسماء المتبرعات بدمائهن، ثم فحصهن فى العيادة الخاصة بكل حى . فاذا ثبت نقاء دم المرأة أو الفتاة وصلاحيته ، أدخلت قاعة الطعام حيث تقدم لها أكلة خفيفة قوامها الشاى والبسكويت . ثم تدخل غرفة أخرى حيث تلبس معطفا وجوارب بيضاء وطاقية رسمت عليها النجمة البيضاء وقناعا واقيا من الغازات ثم ينقل دمها بعناية وسرعة فى أنابيب خاصة ، وتقدم لها بعد ذلك أكلة دسمة ، بينها طبق إجبارى من اللحم : وتستغرق هذه العملية ساعتين و بعض الساعة .

"وقد أتيح لى أن أشهد هذه العملية على الحدود بإذن خاص ، فوالله ماشهدت أهول من هذا المنظر تأثيرا فى القلوب ، وتذكرت وطنى ، وما يعوزه من التضحيات ، وما نبخل به نحن الرجال ، أثرياء وأقوياء ، من التضحيات التى تقل عن ذلك بكثير ، أحسست بالخجل كرجل وجف حلقى ، وأنا أكتم دموعى وزفراتى عندما رأيت سيدة تمسك بالقلم ، وكأنما لم ينقص دمها شيئا ، ولا وهنت قواها مقدار ذرة وتكتب السطور التالية .

" أيها المحارب العزيز ، أتمنى أن يكون هـذا الجزء الصغير من دمى معجلا بشفائك واسترداد قواك التى تعوزك للانتصـار على العدو " ثم وقعت بين دموع التأثر والإعجاب "آنى جيركونا " ... ... وكتبت عنوانها .

"وتناولت فتاة أخرى القلم وكتبت" أيها الرفيق . إنى عاملة بمصنع وأرسل لك دمى لتسترد قواك وأرجو أن تكتب لى ... "مارى بزرايونتونا" .

"وكتبت فتاة ثالثة" ليس لى حظ مقاتلة العدو وجها لوجه ، وجسما لجسم ، للدفاع عن وطنى ، ولا أملك أكثر من دمى أرسله لك لتجديد قواك ، وهو دم نقى من الدرجة الأولى ، ونسبة الهيموجلوبين فيه هى ٦٩ ٪ وسأعطى من دمى كل مايتجدد ، إلى آخر قطرة فى شرايينى . "كوكرنيا — عاملة تليفون " .

وكتبت فتاة أخرى " أيها الرفيق . بل ربمـا أخى " .

"وأخرى". أريد أن أعرف أخى من الدم" أو...ابنى العزيز . أمك تهديك أعز ماتملك. فاشف بسرعة ، وعد لقتال العدو " .

"وترفق هذه الرسائل مع كميات الدم ، فيتقبل الجريح بالدم ، و يقرأ الرسالة المرسلة إليه وقد تجرى المصادفة ، بأن تكون من أخته أو أمه أو زوجته أو ابنته " .

وهكذا ظلت المرأة الروسية" امرأة" حتى فى أحرج المحنات ، امرأة تستخدم مواهب جنسها من العطف والرحمة والرعاية واستثارة نخوة الرجل ليضاعف جهاده و يشحذ عزيمته ويجد فى الميدان فضائل جنسه على ضوء من فضائل الجنس الآخر فى مؤخرة الصفوف .

وهكذا قامت المرأة الروسية بدورها فى بساطة وسهولة واطمئنان، فقدمت دمها لا مجرد جهودها دون أن تفهم أنها قامت بالمعجزات ، ودون أن ترتقب نشر اسمها وصورتها فى الصحف ، ولم تجد بالدم لأن الجود به " مودة " ووسيلة من وسائل الظهور ، بل لأنه تلبية لغريزة الأمومة والعطف الأنثوى فى نفسها ، وأداء لوظيفة طبيعية من وظائفها .

* * *

مصر فى حاجة إلى " سيدات " يعرفن فضائل جنسهن الأصلية ، ويستخدمنها أولا فى البيت والأسرة ، وثانيا فى الخدمة الاجتماعية العامة ، وهذه وتلك متصلتان فى الحافز عليهما كما أسلفت ، وطرائق الخدمة الاجتماعية المتعلقة بوظيفة المرأة كثيرة متعددة ...

مصر فى حاجة إلى عشرات ، بل مئات ، من الجماعات النسوية لا يكون همها الأكبر هو لمطالبة بحق المرأة فى عضوية البرلمان ، فهذه العضوية وأمثالها من مطالب الترف هى آخر ما تؤديه المرأة من الوظائف النافعة للمجتمع والوطن .

مصر فى حاجة إلى جماعات نسوية تدرس حالة الأسر الفقيرة فى كل حى من الأحياء وتزور البيوت المتواضعة وتمتزج بنساء الطبقات المحرومة ، وتعرف نقائص هذه الطبقات وحاجاتها وأمراضها ؛ ثم تستعين بعد هذه الدراسة بجهد الطبقات الغنية وما لها على إطعام الجياع ومداواة المرضى وإرشاد الخاطئين وإصلاح الشواذ ، فى تلك البيئات .

ولها فى هذا المجال حقول خصبة للتجربة والإصلاح ، وقد بدأت وزارة الشئون الاجتماعية بنواة طيبة فى مشروع " مساعدة الأسر الفقيرة " فعلى المرأة المصرية أن تجتهد فى إحراز لقب " سيدة " وفى إظهار مواهبها وفضائل جنسها فى هذا المجال الفسيح ، وسنرى ما يكون.

ومصر فى حاجة إلى جماعات نسوية تأخذ على عاتقها رعاية الصبيات والفتيات اللواتى لا عائل لهن أو اللواتى يضيق بهن رزق العائلين ، حتى لا يقعن فريسة الفقر والحاجة ، وحتى يخدمن فى هذه الجماعات العطف والعلم المناسب والتربية والتدريب ، ثم يجدن منها المعونة على الزواج والتجهيز بما يناسب الحال .

ومصر فى حاجة إلى جماعات نسوية تتلقف المخطئات والواقفات على شفا الهاوية ، فتطهر الأوليات ، وتسعف الأخريات ، وتتعهد الجميع بالرعاية والتهذيب والإرشاد ، وتقدمهن إلى المجتمع بعد ذلك نظيفات عفيفات ، أو تهيىء لهن من وسائل الحياة ما يحفظهن من التعرض للموبقات .

وما هذه الجماعات إلا أمثلة للجماعات النسوية المختلفة التى تحتاج مصر إليها فى الحاضر وفى المستقبل ، وإلا أمثلة لما تؤديه المرأة من الوظائف حين تجد فى نفسها فضلة من النشاط الزائد عن بيتها وأولادها إن كانت ربة بيت ، وعن دروسها وواجباتها إن كانت طالبة أو فى دار أبويها .

وفى هذا النشاط النافع وقاية للمرأة المصرية من التفاهة التى تصير إليها حين تكثر أوقات فراغها ، فلا تجد من المشاغل ما " تقتل به الوقت" إلا العناية بالمودات والأزياء ، وإلا الزيارات الرخيصة الجوفاء ، وإلا قرقزة اللب ولوك الأحاديث التافهة عن أسرار الجيران والجارات ، وحبك الدسائس والوشايات للعارف والصاحبات .

فيه ما يرفع من نفسية السيدة، ويشعرها بأن لها وظيفة سامية فى الحياة، لا تصلح الحياة بدونها ، فهى وظيفة أصيلة فى كيان المجتمع وليست نافلة على هامشه ، فتعتز بفضائل جنسها وتحرص عليها، ولا تهرب منها إلى انتحال فضائل الرجل التى ليست خيرا من فضائلها فى ذاتها.

ولعل الله أن يهدينا قريبا إلى برامج دراسية للفتاة تعدها لهذا الواجب العظيم الذى ألفته الطبيعة على كاهلها ، وجعلتها بأدائه مساهمة أصيلة فى بناء المجتمع وتشييد صرح الوطن، بل الإنسانية والخلق والدين والحياة ...

« س . . . »